أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم.. بلاغته وأغراضه

د. سامي عطا حسن *

* جامعة آل البيت – المفرق – المملكة الأردنية الهاشمية.

ملخص البحث:

افتتح القرآن الكريم كثيرا من السور القرآنية بالقسم، وأورد أقساما في ثنايا عدد غير قليل منها، وأسلوب القسم في اللغة العربية من المؤكدات المشهورة، التي تمكن الشيء في النفس وتقويه، وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة، ووقف الناس منه مواقف متباينة، فمنهم: الشاك، ومنهم: المنكر، ومنهم: الخصم الألد، فجاء القسم في كتاب الله، لإزالة الشكوك، وإحباط الشبهات، وإقامة الحجة، وتوكيد الأخبار، لتطمئن نفس المخاطب إلى الخبر، لا سيما في الأمور العظيمة التي أقسم عليها.

لقد أقسم الله بمخلوقاته مع نهيه عن القسم بغيره، للأشارة إلى أن هذه المخلوقات، ما هي إلا آيات يستنير بها أولوا الألباب في مناهج الاستدلال على وجود الصانع الحكيم، ولتصحيح العقائد الباطلة، فالقسم بالنجم إذا هوى وأمثال ذلك، فيه رد على من اعتقدوا ألوهية الكواكب، وللفت الأنظار إلى الكون وما يحويه من حقائق وأسرار، ونظام بديع محكم، ولتقرير أن الكتاب الذي جاء به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – منزل من عند الله، وأن الله تكفل بحفظه من التبديل، والتحريف، والنقص، والزيادة، وأنه كتاب هداية، ينير البصائر والأبصار، لتهتدي إلى أقوم طريق.

وقد أقسم الله بجميع مخلوقاته، شاهدها ومشهودها، ما نبصره وما لا نبصره. على وجوده ووحدانيته، وقدرته، ووقوع البعث، وصدق النبي – صلى الله عليه وسلم–، ولينبهنا على ما فيها من روعة، تدفع إلى التفكير في خالقها.

كما أن القسم بالله تعالى مقصود به التقديس، لأنه الخالق الذي يستوجب التقديس والعبادة، وما عدا ذلك فالتقديس والتشريف غير لازمين للقسم، وإن كان المقسم به عظيما في ذاته، وعظيما عند خالقه.

تمهيد:

أسلوب القسم في اللغة: طريق من طرق توكيد الكلام، وإبراز معانيه ومقاصده على النحو الذي يريده المتكلم، إذ يؤتى به لدفع إنكار المنكرين، أو إزالة شك الشاكين.والقسم من المؤكدات المشهورة التي تمكن الشيء في النفس وتقويه، ومعلوم أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، وعلى أسلوب كلامهم، ومناحي خطابهم، وكان من عادتهم أنهم إذا قصدوا توكيد الأخبار وتقريرها، جاءوا بالقسم، وعلى هذا جاءت في القرآن الكريم أقسام متنوعة، في مواضيع شتى، لتوكيد ما يحتاج إلى التوكيد.

والأقسام التي جاء بها القرآن الكريم على ضربين:

الضرب الأول: – ما ورد على طريق الحكاية، في ضمن ما قصه القرآن من قصص المخلوقين، كقوله تعالى حكاية لقول إبراهيم – عليه السلام – لقومه: – ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾[1] وكقوله سبحانه مخبرا عما كان يقوله كفار مكة، قبل بعثة المصطفى – عليه الصلاة والسلام –: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾[2].

وهذا الضرب من القسم كثير في القرآن، وليس من غرضي أن أخوض فيه في هذا البحث.

الضرب الثاني: ما أقسم الله تعالى به، وهذا على نوعين:

النوع الأول: القسم المضمر، وهو القسم المحذوف، المدلول عليه بجوابه المقرون باللام،

كقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ

---

(١) سورة الأنبياء: آية / ٥٧.

(٢) سورة فاطر: آية /٤٢.

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾[1] تقديره: والله لتبلون ولتسمعن، بدلالة الجواب المقرون باللام.

أو المدلول عليه بالمعنى والسياق كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[2]، أي: والله ما من كافر إلا وارد النار، بدلالة المعنى والسياق، لأن هذه الآية جاءت بعد آيات مؤكدات بالقسم الملفوظ، وهو قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾[3] فدل القسم الملفوظ على القسم الملحوظ، وهذا النوع من القسم كثير في القرآن كذلك، وهو خارج عن نطاق هذا البحث.

النوع الثاني: القسم الظاهر، وهو الملفوظ، وهو ما سيكون عليه مدار هذا البحث.

وقد اشتمل هذا البحث على تمهيد، وسبعة مباحث، وخاتمة:

بينت في **المبحث الأول:** الأصل الاشتقاقي لألفاظ القسم.

وبينت في **المبحث الثاني:** أركان القسم.

وفي **المبحث الثالث:** حققت القول في المقسم به المبدوء بأداة النفي.

وفي **المبحث الرابع:** بينت أنواع القسم الظاهر في القرآن الكريم، وهو نوعان:

النوع الأول: إقسامه تعالى بذاته وصفاته.

النوع الثاني: إقسامه تعالى بمخلوقاته.

وفي **المبحث الخامس:** وضحت أغراض القسم القرآني، وأهدافه.

---

(١) سورة آل عمران: آية / ١٨٦.
(٢) سورة مريم: آية/ ٧١
(٣) سورة مريم: الآيات: ٦٨، ٦٩، ٧٠.

وفي **المبحث السادس**: بينت الأمور المقسم عليها.

وجعلت **المبحث السابع**: لبيان بلاغة القسم القرآني.

وفي **الخاتمة**: استعرضت أهم النتائج.

والله أسأل أن اكون قد وفقت في العرض لهذا الموضوع، والحمد لله في الأولى والآخرة.

المبحث الأول
الأصل الاشتقاقي لألفاظ القسم

مادة قسم (ق، س، م)[1]: لها معنيان رئيسان هما: –

أ – التجزئة والتفريق:

وهو – القسم – بسكون السين، وجمعه أقسام، وترجع إليه مشتقات عديدة منها: قسم الشيء يقسه قسما ً بمعنى: جزأه وفرقه، ويكون بمعنى: قدر ونظر، كقولك: هو يقسم أمره، أي: يقدره، ويدبره، وينظر كيف يعمل فيه، قال لبيد:

فقولا له إن كان يقسم أمره ألما يعظك الدهر أمك هابل[2]

وقسمه – بالتضعيف –: للتكثير، أي جزأه، ومنه قوله تعالى: – ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾[3]

وقاسم فلان فلانا أي: أخذ كل منهما قسمه. واقتسم القوم الشيء بينهم، أي: أخذ كل واحد منهم نصيبه منه. إلى غير ذلك من المشتقات التي ذكرتها كتب اللغة.

ب – الحلف واليمين:

وهو القسم – بفتح القاف والسين – وجمعه أقسام، مثل: سبب وأسباب، ويستعمل منه الأفعال التالية

١ – أقسم بالله إقساما أي: حلف بالله حلفا..

---

(١) انظر مادة (قسم) في لسان العرب لابن منظور، والقاموس المحيط: للفيروزآبادي ط٢.

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة العامري، ص ١٣١. وقوله: أمك هابل: دعاء عليه كقوله: ثكلتك أمك، انظر: ابن منظور: لسان العرب: ج١٥ / ص ٢٠.

(٣) سورة الذاريات: آية / ٤.

٢ – قاسمه: أقسم له، أو شاركه في القسم. ومنه قوله تعالى: – ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[١]

٣ – اقتسم: – يقال: اقتسموا: تحالفوا، ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾[٢]، وهم الذين تقاسموا وتحالفوا على الكيد للرسول – صلى الله عليه وسلم –، وقيل: هم الذين جعلوا القرآن عضين، آمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه الآخر.[٣]

٤ – تقاسم: يقال: تقاسم القوم، أي: تحالفوا، ومنه قوله تعالى – ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾[٤]، فهي بمعنى التحالف، أو طلب بعضهم القسم من بعض.

٥ – استقسمه بالله: طلب منه أن يقسم به.

٦ – القسامة: – ومن معانيها: اليمين، والجماعة يقسمون على حقهم ويأخذونه، يقول الراغب: (إن القسم بمعنى اليمين، أصله من القسامة، وهي أيمان تقسم على أولياء القتيل إذا ادعوا على رجل أنه قتل صاحبهم، ومعهم دليل دون البينة، فيحلفون خمسين يمينا تقسم عليهم، ثم صار اسماً لكل حلف، فكأنه (أي:القسم) كان في الأصل تقسيم أيمان، ثم صار يستعمل في نفس الحلف والأيمان[٥] والعلاقة بين هذين المعنيين الرئيسين للقسم وثيقة الصلة، قوية الرباط، فما جعل القسم إلا للتفريق بين الحق والباطل، وما التجيء إليه إلا لتحديد الأنصباء، وتوزيع الحظوظ، والفصل بين الخصومات.[٦]

---

(١) سورة الأعراف: آية / ٢١.

(٢) سورة الحجر: آية / ٩٠.

(٣) انظر أقوال المفسرين في الآية في تفسير: شهاب الدين محمود الآلوسي: روح المعاني، ج١٤/ ص٨٠-٨٤.

(٤) سورة النمل: آية / ٥١.

(٥) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٦٧٠وانظر د. أبو اليقظان عطية الجبوري: اليمين والآثار المترتبة عليه، ص ١٩٢-١٩٣.

(٦) الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج٤ / ص ١٦٦. و علي أبو القاسم عون: أسلوب القسم واجتماعه مع الشرط، ص ٣١- ٣٤، (بتصرف). و د. سمير عبد العزيز شيلوة: الكشف والبيان في علوم القرآن، ص ٢٨١ وما بعدها.

٢: - مادة (ي، م، ن)[١]:

بزيادة ياء قبل الحرف الأخير: يمين على وزن فعيل، لها عدة معان، منها: يمين الإنسان، والقوة، والقدرة، والمنزلة، والدين. ومن معانيها: الحلف والقسم، وهو المعنى الذي يهمنا بالدرجة الأولى.

واليمين مأخوذ من أن المتحالفين، والمتعاهدين، قد يضع كل منهما يمينه في يمين الآخر، فصار الحلف يسمى يمينا، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ﴾[٢]

قال في مختار الصحاح: (واليمين: القسم، والجمع: أيمن، وأيمان، وقيل: إنما سميت بذلك، لأنهم كانوا إذا تحالفوا، ضرب كل امرىء منهم يمينه على يمين صاحبه)[٣]

وقال أبو اسحق إبراهيم بن عبد الله النجيرمي: - (وأصل اليمين أنهم كانوا إذا تحالفوا وتعاقدوا تصافقوا بأيمانهم، ولذلك قيل: أعطاه صفقة يمينه على هذا الأمر، ثم سموا الحلف يمينا على هذا المعنى. وأنثوا اليمين على تأنيث اليد، فقالوا: حلف يمينا برة ويمينا فاجرة)[٤].

٣:- مادة (ح، ل، ف)[٥]: -

لا تخرج هذه المادة عن معنيين رئيسين هما: القسم، والعهد. والحَلف والحِلف - بفتح الحاء وكسرها - لغتان في القسم. فالحِلف - بكسر الحاء -: العهد يكون بين القوم، وقد حالفه: أي عاهده. وتحالف القوم: تعاهدوا،ويكون

---

(١) انظر مادة (يمن) في الصحاح، والقاموس المحيط، ولسان العرب، والتعريفات: للجرجاني، ص ٢٨.

(٢) سورة المائدة: جزء من الآية / ٨٩.

(٣) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح: ص ٧٤٥.

(٤) أبو اسحق إبراهيم بن عبد الله النجيرمي، أيمان العرب في الجاهلية،ص ٣٤.

(٥) ابن منظور: لسان العرب، والفيروز آبادي: القاموس المحيط _ (مادة: حلف).

بمعنى آخى، وعليه ما جاء حديث أنس: (حالف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بين المهاجرين والأنصار في دارنا)[١] أي: آخى بينهم.

والحلف – بفتح الحاء –: اليمين، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾[٢]، وقال الرسول – صلى الله عليه وسلم –: (من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر، وليأت الذي هو خير..)[٣]

وأصلها: (أنهم كانوا إذا تحالفوا وتعاقدوا تصافقوا بأيمانهم، ولذلك قيل: أعطاه صفقة يمينه على هذا الأمر، ثم سموا الحلف يمينا على هذا المعنى)[٤].

(ومشتقات هذه المادة لا تكاد تخرج عن معنى القسم واليمين، وإن خرجت فإلى ما يترتب عليه من محالفة ومعاهدة والتزام، فهي أصل في القسم، تفرعت عنه معان متصلة به).[٥]

ومع أن كتب المعاجم ترى أن (الحلف والقسم) لفظان مترادفان يؤديان معنى واحدا من غير فرق أو تمييز بينهما، وتفسر أحدهما بالآخر، ولكن حين نستقريء استعمال الكلمتين، وأصل اشتقاقهما لنتعرف على الفرق بينهما، نجد أن العرب يقولون: (حلفة فاجر، وأحلوفة كاذبة)[٦]، ولم يرد مثل هذا مع القسم.

فالحلف يدور حول الاحتمال والشك والتردد، وبهذا يكون الحالف غالبا معرضا للحنث كثيرا، لأنه حلف على الظن، وليس عن يقين.

وحين نستقريء البيان القرآني في استعماله لمادة (ح. ل. ف) نجدها قد

---

(١) الإمام عبد الله بن الزبير الحميدي: المسند، ج٢/ ص ٥٠٧، حديث رقم (١٢٠٥).
(٢) سورة القلم: آية / ١٠.
(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: ج٢ / ص ٢٣، كتاب الأيمان، من حديث أبي هريرة.
(٤) إبراهيم بن عبد الله النجيرمي: أيمان العرب في الجاهلية (مرجع سابق) ص ٣٤.
(٥) علي أبو القاسم عون: أسلوب القسم واجتماعه مع الشرط (مرجع سابق) ص ٣٦-٣٧.
(٦) جارالله الزمخشري: أساس البلاغة، كتاب الشعب، ص١٩٢.

دارت في بيانه الكريم في ثلاثة عشر موضعا[1]، كلها جاءت بغير استثناء في الحنث باليمين، وفي آيات مدنية، وخصوصا في سورة التوبة، عدا آية واحدة مكية، هي قوله تعالى في سورة القلم: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾[2]، ثم إن إسناد الفعل غالبا جاء في المنافقين. وحين أسند الفعل إلى المؤمنين في قوله تعالى: – ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾[3] كان ذلك لبيان كفارة الحلف عند الحنث. وباستعراض آيات الحلف المسندة للمنافقين، والتي كشفت حقيقتهم وفضحت زيفهم، نرى أن اليمين فيها كانت معقودة أصلا وابتداء على خلاف الحقيقة والواقع في أغلب الآيات، وهم يعلمون ذلك، وأن الأمر كذب.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[4]. فالحلف يدور في العربية على احتمال الحنث غالبا، لأنه مبني على الظن، وفي البيان القرآني يتضح بجلاء أن اليمين في الحلف معقودة غالبا على الحنث أصلا، حيث يحلف المنافقون على خلاف الحقيقة، التماسا للعذر، دون مبرة في الحلف، أو صدق في اليمين.

أما القسم: فتفسره المعاجم بالحلف دون أن تذكر فرقا بينهما، إلا أننا نجد صاحب القاموس يقول:

(والقسم: العطاء والرأي.. وأن يقع في قلبك الشيء فتظنه، ثم يقوى ذلك الظن فيصير حقيقة)[5]. فكأن القسم في بعض اشتقاقاته اللغوية أقوى في الظن، وأقرب إلى الحق، وأبعد عن الاحتمال والشك، كما هي الحال في الحلف.

---

(١) انظر سورة المائدة / ٨٩، والنساء / ٦٢، والتوبة / ٤٢، ٥٦، ٦٢، ٧٤، ٩٥، ٩٦، ١٠٧، والمجادلة / ١٤، ١٨، والقلم / ١٠.

(٢) سورة القلم / آية ١٠.

(٣) سورة المائدة: آية / ٨٩.

(٤) سورة المجادلة: آية / ١٤.

(٥) الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ج٤/ ص ١٦٤.

فالقسم إذا يكون على الشيء الواضح، والحق البين، والأيمان الصادقة، ولهذا جاء القسم في القرآن بالأيمان الصادقة، وجاء موصوفا بالعظمة في قوله تعالى: - ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[1].

وباستقراء البيان القرآني في استعمال القسم، يدلنا على أنه يعتبر بحال المقسم عند عقد اليمين، فيخص القسم بمن كان صادقا عند عقده لليمين، حتى ولو خالف ذلك الحق، وجانب الصدق في واقع الأمر، وإنما كان ذلك هو اعتقاده الجازم، ونظرته المخلصة في نظر نفسه، أو على الأقل إيهام المقسم له بذلك. ومن هنا يمكن أن نفهم إشارة القرآن الكريم المتكررة إلى الجهد المبذول عند عقد اليمين من قبل بعض الكفار، والمشركين، مما يوحي بصدقهم وإخلاصهم في اعتقادهم، وإن لم يكن هو الحق. فقد ذكر الله سبحانه وتعالى إقسامهم بالله جهد أيمانهم في خمسة مواضع[2]، ليوحي اجتهادهم غاية الجهد في هذه الأيمان بصدقهم فيها، وإن تبين فيما بعد أن الأمر بخلاف ذلك. ومن هنا نرى أن القسم يرد عاما، من الله سبحانه، وعلى لسان المسلمين، والمنافقين، والكفار، ويكون في آيات مكية ومدنية، وغالبا ما يكون صادقا بارا، وإن لم يكن كذلك في واقع الأمر، فعلى الأقل في نظر المقسم، وحسب اعتقاده عند عقد اليمين. تقول بنت الشاطئ في تفسير سورة البلد: [فقد يبدو من السهل أن نفسر (أقسم) بلفظ (أحلف)، وليس في استعمال العرب لهما ما يمنع من تفسير أحدهما بالآخر، لكن استقراء الكلمتين في القرآن يمنع هذا الترادف..... إلى أن تقول: وأمام هذا الاستعمال القرآني، لا يهون أن نفسر القسم بالحلف، وصنيع القرآن فيهما يلفت إلى فرق دقيق بين اللفظين المقول بترادفهما، فرق

---

(١) سورة الواقعة: آية / ٧٦.

(٢) انظر الآيات: في سورة المائدة: آية / ٥٣، وسورة الأنعام: آية/ ١٠٩، وسورة النحل: آية / ٣٨، وسورة النور: آية/ ٥٣، وسورة فاطر: آية / ٤٢.

يؤيده فقه العربية، فاختلاف مادتي اللفظين يؤذن باختلاف مدلول كل منهما، وبين حلف وحنث من القرب ما ليس بين حلف وقسم، مما يبعد أن يكونا سواء)][1]. وهذا فرق كبير واضح، يكفي لنفي ترادف الكلمتين[2].

(١) بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمن): التفسير البياني للقرآن الكريم، ط٧، ج١ / ص١٦٦-١٦٨.

(٢) محمد بن عبد الرحمن بن صالح الشايع: الفروق اللغوية، ص ٢٣٨- ٢٤٣. ومحمود سليم: خصوصية المعنى لألفاظ القرآن الكريم، ص ١١٥-١٢٠.

المبحث الثاني
أركان القسم

للقسم أركان أربعة:-

الركن الأول: - المقْسِم: وهو إما الله، وإما العباد.

أما القسم من الله: - فقد قيل: ما معنى القسم منه تعالى؟ فإنه إن كان لأجل المؤمن، فالمؤمن مصدق بمجرد الإخبار من غير قسم. وإن كان لأجل الكافر، فلا يفيده.(١)

والجواب: إن القرآن نزل بلغة العرب، ومن عادتها القسم إن أرادت أن تؤكد أمراً، كما أن الحكم يفصل باثنين: إما بالشهادة، وإما بالقسم، فإذا اجتمعت البينة وهي: الشهادة، مع اليمين، على دعوى، اكتسبت مزيد ثبوت وتقرير، فذكر الله تعالى في كتابه النوعين، حتى لا يبقى لهم حجة، فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٢)

وقال: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾(٣)

ففي الآية الأولى: فصل الحكم وقرره بالشهادة. وفي الآية الثانية: قرره وأكده بالقسم.(٤)

وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾(٥) صرخ

---

(١) انظر: الزركشي: البرهان، ج٣ / ص ٤١.
(٢) سورة آل عمران: آية /١٨
(٣) سورة يونس: آية /٥٣.
(٤) د. سمير عبد العزيز شيلوة: الكشف والبيان (مرجع سابق) ص ٢٨٩- ٢٩٠.
(٥) سورة الذاريات: الآيتان: ٢٢، ٢٣.

وقال: – من ذا الذي أغضب الجليل حتى ألجأه لليمين.[1] فالقسم ضرب من البيان ألفه العرب، ليوثقوا به أنباءهم، وتبين أنه كثيرا ما يجيء للإستشهاد والاستدلال على صدق المقال – فهو – إذن – نوع من الدليل الواقعي المحسوس، الذي يستميل المشاعر والوجدان، ويثير الانتباه والتفكير.

الركن الثاني: المقْسَم به: – ولمجيئه في القرآن الكريم أغراض:

الأول: – أنه قد يكون شيئاً علوياً بعيداً عنا، يثير الرهبة والعظمة والجلال، ويدعونا ذكره والقسم به، إلى أن يثيرلدينا الفضول العلمي، وحب الاستطلاع، فأخذ في توجيه أنظارنا إليه بالبحث والدرس والتحليل، ومحاولة تسخيره لمنافعنا، وذلك كالسماء، وما فيها من شمس، وقمر، ونجوم، ومظاهر كونية كثيرة، فالقسم بهذه الكائنات العلوية، يدفع الناس إلى البحث والتنقيب، ونصوص القرآن الدالة على النظر والبحث كثيرة، منها قوله تعالى: – ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾[3]. وقد أثبت الواقع أنه كلما تعمق الباحثون في دراسة هذه الظواهر التي أقسم الله بها، وجدوا فيها من العظمة والجلال، والقدرة الإلٰهية، ما تخر له النفوس ساجدة خاشعة، قائلة: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[4].

الثاني: – أن المقسم به قد يكون شيئا أرضيا مما يحيط بالإنسان ويتعايش به ومعه، ويقسم الله تعالى به لما فيه من منافع وفوائد، كالتين، والزيتون، والبحر المسجور، والأرض وما طحاها

الثالث: – أن يكون المقسم به شيئا ذاتيا للإنسان، وذلك كالنفس البشرية التي أقسم الله تعالى بها في قوله: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا

---

(١) شهاب الدين محمود الآلوسي: روح المعاني، ج٢٧، ص ١٠-١١.
(٢) سورة يونس: آية /١٠١.
(٣) سورة الأعراف: آية /١٨٥
(٤) سورة آل عمران: آية /١٩١.

وَتَقْوَىٰهَا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾[2]. ولا شك أن القسم بهذه الأشياء يفتح للباحثين مجالا كبيرا في المباحث الفكرية، والنفسية، والاجتماعية[3]

الركن الثالث: جواب القسم أو المقسم عليه: -

الغالب في المقسم عليه أن يكون في الكلام، لأنه المقصود بالتحقيق، وقد يحذف كما يحذف جواب (لو)، إما: للعلم به، أو لتذهب النفس فيه كل مذهب. كما في مثل قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾[4]، فجواب لو محذوف، تقديره: لو تعلمون علم اليقين عاقبة التفاخر ما اشتغلتم به. وهذه عادة العرب في كلامهم إذا رأوا أموراً عجيبةً، وأرادوا أن يخبروا بها الغائب عنها.

وأكثر ما يحذف جواب القسم: إذا كان في نفس المقسم به دلالة على المقسم عليه، فإن المقصود يحصل بذكره (أي المقسم به)، فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز، كما في قوله تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾[5]، فإن في المقسم به من تعظيم القرآن، ووصفه بأنه ذو الشرف، والقدر، ما يدل على المقسم عليه، وهو كونه حقا من عند الله غير مفترى، وتقدير الجواب: إن الفرقان لحق. وهذا يطرد في كل ما شابه ذلك، كقوله تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾[6]، وتقدير الجواب: ما آمن كفار مكة برسول الله- صلى الله عليه وسلم-.

---

(١) سورة الشمس: آية /٧.
(٢) سورة الليل: آية /٣.
(٣) انظر: د. سمير عبد العزيز شيلوة: الكشف والبيان، ص ٢٩٣. ود. عبد ربه فرحات: تفسير سورة النجم، دراسة تحليلية، موضوعية، ص ٤٣-٤٤.
(٤) سورة التكاثر: آية /٥.
(٥) سورة صٓ: آية/١.
(٦) سورة ق: آية/١.

الركن الرابع: أدوات القسم:

للقسم أدوات منها: (الباء، والواو، والتاء، واللام، ومن)، قال سيبويه: (وللقسم والمقسم به أدوات في حروف الجر، وأكثرها الواو، ثم الباء، يدخلان على كل محلوف به،..الخ).(١)

والذي يعنينا من هذه الأدوات هي الحروف الثلاثة الأولى، إذ لم ترد (اللام)، أو (من)، للقسم في القرآن الكريم.(٢)

أولها: الباء: وهي الأصل في أدوات القسم، وهي حرف جر يأتي لأربعة عشر معنى، ذكر معانيها ابن هشام، وقال: (الثاني عشر: القسم، وهو – أي حرف الباء – أصل أحرفه)(٣)

ومما يؤيد أن الباء أصل حروف القسم:

١ – جواز إثبات فعل القسم وفاعله معها، كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٤) أو حذفهما، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾(٥).

٢ – ودخولها على المظهر والمضمر، ولا يدخل من حروف القسم غيرها على المضمر، ومن شواهد دخولها على الاسم الظاهر، قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾(٦). أما دخولها على المضمر فلا دليل له في القرآن الكريم، وهو كقولك: (أقسم به إني لصادق).

---

(١) سيبويه: الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، ج٣/ ص٤٩٦ وما بعدها.
(٢) انظر: ابن يعيش: شرح المفصل: ج٨/ ص ٣٣– ٣٤، وج٩ / ص ٩٩– ١٠١.
(٣) انظر معاني الباء في: ابن هشام: المغني، ص ١٤٣، وانظر المرجع السابق: ص١٣٧–١٥١.
(٤) سورة النحل: آية / ٣٨.
(٥) سورة الأعراف: آية / ١٦.
(٦) سورة النمل: آية / ٤٩.

٣ - تستعمل في القسم الاستعطافي: كقول عبد الله بي قيس الرقيات:

رقي بعمركم لا تهجرينا ومنينا المنى ثم امطلينا.[١]

فاستعمل الباء في الاستعطاف في (بعمركم لا تهجرينا).

ثانيها: الواو: وتأتي لعدة معان، قال ابن هشام: (انتهى مجموع ما ذكر من أقسامها إلى خمسة عشر، إلى أن يقول: السادس والسابع: واوان ينجر ما بعدهما، إحداهما: واو القسم، ولا تدخل إلا على مظهر، ولا تتعلق إلا بمحذوف، نحو: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾[٢]، فإن تلتها واو أخرى، نحو: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾[٣] فالتالية هي واوالعطف..)[٤]

ثالثها: التاء، قال ابن هشام: (التاء المفردة: محركة في أوائل الأسماء، ومحركة في أواخرها، ومحركة في أواخر الأفعال، ومسكنة في أواخرها. فالمحركة في أوائل الأسماء: حرف جر معناه القسم...)[٥]

والتاء تختص بلفظ الجلالة، وذلك لكثرة الحلف به، مثل قوله تعالى: ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾[٦] قال الزمخشري: (التاء فيها زيادة معنى، وهو: التعجب، كأنه تعجب من تسهل الكيد على يده، وتأتيه، لأن ذلك كان أمرا مقنوطا منه، لصعوبته وتعذره)[٧]

---

(١) عبد الله بن قيس الرقيات: ديوانه، ص ١٣٧.
(٢) سورة يس: آية / ٢.
(٣) سورة التين: آية / ١.
(٤) ابن هشام: المغني: ص٤٧٣، وانظر المرجع السابق: ٤٦٣-٤٨٢.
(٥) ابن هشام: المغني، ص ١٥٧.
(٦) سورة الأنبياء: آية / ١٥٧.
(٧) الزمخشري: تفسير الكشاف، ج٢/ ص ٥٧٦.

المبحث الثالث

تحقيق القول في المقسم به المبدوء بأداة النفي:

ورد المقسم به مسبوقا بأداة النفي (لا) في ثمانية مواضع من القرآن الكريم، وهي: –

أ – مقسم به تقدمته أداة النفي مقترنة بالفاء، وذلك في ستة مواضع من القرآن الكريم، وكلها في ثنايا السور وهي:

١ – قوله تعالى: – ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾(١).

٢ – قوله تعالى: – ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾(٢).

٣ – قوله تعالى: – ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾(٣).

٤ – قوله تعالى: – ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾(٤).

٥ – قوله تعالى: – ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾(٥).

٦ – قوله تعالى: – ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾(٦).

ب – مقسم به مسبوق بأداة النفي غير مقترنة بالفاء، وذلك في موضعين: –

١ – قوله تعالى: – ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾(٧).

٢ – قوله تعالى: – ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾(٨).

---

(١) سورة النساء: آية /٦٥.
(٢) سورة الحاقة: الآيتان / ٣٨، ٣٩
(٣) سورة المعارج: آية /٤٠.
(٤) سورة الواقعة: آية /٧٥.
(٥) سورة التكوير: الآيتان /١٥، ١٦.
(٦) سورة الانشقاق: آية /١٦.
(٧) سورة القيامة: الآيتان /١، ٢.
(٨) سورة البلد: آية /١.

وقد تناول المفسرون هذا النوع من المقسم به بالحديث، ويمكن أن نجمل حديثهم عنه فيما يلي:

الرأي الأول: وحاصله:

أ - أن (لا) لنفي القسم.

فكأن الله تعالى يريد أن يقول: لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب، فهو أعظم وأجل من أن يقسم عليه بهذه الأشياء. ويكون الغرض من هذا الكلام تعظيم المقسم عليه، وتفخيم شأنه، أو: يكون الغرض إثبات أن المقسم عليه أظهر وأجل من أن يقسم عليه بمثل هذه الأشياء، فإن إثباته أظهر وأجل وأقوى من أن يحاول إثباته بمثل هذا القسم، وبه قال الفخر الرازي.(١)

ب - أن (لا) هذه إذا وقعت خلال الكلام، كقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾(٢)، فهي صلة تزاد لتوكيد القسم، مثلها في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾(٣) لتأكيد وجوب العلم. وإذا وقعت ابتداء كما في سورة القيامة، وسورة البلد، فهي للنفي، لأن الصلة لا تكون في أول الكلام. ووجهه: - أن إنشاء القسم يتضمن الإخبار عن تعظيم المقسم به، فهو نفي لذلك الخبر الضمني على سبيل الكناية. والمراد: أنه لا يعظم بالقسم، لأنه في نفسه عظيم، أقسم به أولا، ويترقى من هذا التعظيم إلى تأكيد المقسم عليه، إذ المبالغة في تعظيم المقسم به، تتضمن المبالغة في تعظيم المقسم عليه.. وبه قال الزمخشري.(٤)

---

(١) الفخر الرازي: التفسير الكبير، الطبعة الثالثة، ج٢٩/ ص ٢١٥.
(٢) سورة النساء: آية /٦٥.
(٣) سورة الحديد: آية /٢٩.
(٤) الزمخشري: الكشاف: ج١ / ص٥٣٨.

جـ - أن (لا) لنفي ما ينبيء عنه القسم من إعظام المقسم به وتفخيمه. فإن معنى لا أقسم بكذا: لا أعظمه بإقسامي حق إعظامه، فإنه حقيق بأكثر من ذلك. وهذا الرأي يدور على أن (لا) للنفي، وهذا الأسلوب يتضمن التعظيم. لكن: هل التعظيم منصب على المقسم به، كما ذهب إليه أبو السعود[١]، على معنى: لا أعظمه بإقسامي به حق إعظامه، فإنه حقيق بأكثر من ذلك. أم أن التعظيم منصب على المقسم عليه، على معنى: لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات المطلوب، فإنه أعظم من أن يقسم عليه بهذه الأشياء، وهذا ما ذهب إليه الفخر الرازي.[٢] أم هو منصب على المقسم به، والمقسم عليه، كما ذهب إلى ذلك الزمخشري..؟ إذ المبالغة في تعظيم المقسم به تتضمن المبالغة في تعظيم المقسم عليه[٣].

ويرد هذا الرأي قوله تعالى في سورة الواقعة: - ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[٤]. فهذا دليل على أن هنا قسما مثبتا، وأن الكلام إثبات قسم، لا نفي قسم، وليس بعد بيان الله بيان. ويقاس على هذا بقية المواضع الثمانية، إذ هي مثلها في اللفظ، فتكون مثلها في الحكم.

الرأي الثاني:

وحاصله: - أن صيغة (لا أقسم) عبارة من عبارات القسم، واختلفوا في توجيهها على أقوال: -

أولا: - أن لا صلة، أي: زائدة، والمعنى: أقسم. قال بزيادتها: (ابن خالويه)[٥]،

---

(١) أبو السعود بن محمد العمادي: تفسير أبي السعود (تفسير سورة الواقعة)،ج٥/ ص ٢٦٧.
(٢) الفخر الرازي: التفسير الكبير، (مرجع سابق) ج٢٩ / ص ٢١٥، (تفسير سورة القيامة)
(٣) انظر تعليق _ ابن المنير- على تفسير الزمخشري للآية / ٦٥ في سورة النساء، ج١/ ص ٥٣٨-٥٣٩..
(٤) سورة الواقعة: آية /٧٦.
(٥) ابن خالويه (أبو عبد الله الحسين بن أحمد): إعراب ثلاثين سورة من القرآن،ص ٨٧.

وأجاز ذلك أبو علي الفارسي في قوله (وإن جعلت تأكيدا لم يمتنع).[١]

وقال بزيادتها كذلك الزمخشري، في تفسيره للآية (٧٥) من سورة الواقعة قال: [فلا أقسم، معناه: فأقسم، ولا مزيدة مؤكدة، مثلها في قوله تعالى ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾[٢]][٣]، وقال في موضع آخر من الكشاف: [إدخال لا النافية على فعل القسم مستفيض في كلامهم، وأشعارهم قال امرؤ القيس:

لا وأبيك ابنة العامري لا يدعي القوم أني أفر[٤]

وفائدتها: توكيد القسم. ثم قال: (واعترضوا عليه بأنها إنما تزاد في وسط الكلام لا في أوله، وأجابوا بأن القرآن في حكم سورة واحدة، متصل بعضه ببعض، والاعتراض صحيح، لأنها لم تقع مزيده إلا في وسط الكلام، ولكن الجواب غير سديد، ألا ترى إلى امريء القيس كيف زادها في مستهل قصيدته][٥]

وقيل: إنها زيدت توطئة وتمهيدا لنفي الجواب، كما في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[٦] فالمعنى: لا، أقسم بيوم القيامة، لا يتركون سدى[٧].

وما قاله الزمخشري وغيره مردود بأمور منها:

١ – لا: ليست زائدة لتأكيد القسم، لأن ما يراد توكيده ينبغي أن يكون متأخرا عما هو مؤكد له، فليس من المقبول أن نجعل (لا) مزيدة لتأكيد معنى القسم

---

(١) أبو علي الفارسي: المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات، ص ٥٧١.
(٢) سورة الحديد: آية /٥٨
(٣) الزمخشري: تفسير الكشاف، ج٤ / ص ٥٨.
(٤) ديوان امريء القيس، صنعه: حسن السندوبي، ص ٥٢، والقوم هنا: بنو تميم. أفر: أنهزم. وقد جعل بعض الرواةهذا البيت أول القصيدة. وابنة العامري هي: هر بنت سلامة بن علند.
(٥) الزمخشري: تفسير الكشاف،(مرجع سابق) ج٤/ ص١٨٩ (تفسير سورة القيامة). وانظر د. فضل حسن عباس: لطائف المنان، ص ٢٤٣.
(٦) سورة القيامة: آية /١.
(٧) جمال الدين ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب، ص ٣٢٨-٣٢٩.

الوارد بعدها، وقد منع (ثعلب) وغيره مجيء لا زائدة للتأكيد في إبتداء القول، واستقبحه بعض أهل اللغة، وأنكروه، لأن حكم التأكيد ينبغي أن يكون بعد المؤكد[١]. وَ (لأن زيادة الحرف يدل على إطراحه، وكونه في أول الكلام يدل على قوة العناية به، لذا لم يجز أن نجعل –لا– في هذه الآية زيادة).[٢]

٢ – إن قولهم: إن –لا– زيدت توطئة وتمهيدا لنفي الجواب مردود بقوله تعالى: – ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[٣] فإن جوابه هو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾[٤]. وهو مثبت غير منفي. ومثله قوله تعالى: – ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾[٥] فإن جوابه مثبت، وهو قوله تعالى: – ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾[٦].

ثانيا: – إن –لا– نافية لكلام سابق ثم استأنف القسم:

وتحقيقه في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٧]. أن – لا – نافية لكلام المشركين المنكرين للبعث، أي: ليس الأمر كما زعموا، ثم ابتدأ: أقسم بيوم القيامة.

قال القرطبي: (وقال بعضهم: (لا): رد لكلامهم: حيث أنكروا البعث، فقال: ليس الأمر كما زعمتم. قلت: وهذا قول الفراء، قال الفراء: وكثير من النحويين يقولون: (لا) صلة، ولا يجوز أن يبدأ بجحد ثم يجعل صلة، لأن هذا لو كان كذلك لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه، ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث، والجنة، والنار، فجاء الإقسام بالرد عليهم، وذلك

---

(١) ابن يعيش: شرح المفصل: ج٨ ص ١٣٦..
(٢) أمالي ابن الشجري: ج١/ ص ٢١٩، ٢٢٢.
(٣) سورة الواقعة: آية / ٧٥.
(٤) سورة الواقعة: الآيتان / ٧٧، ٧٨.
(٥) سورة البلد: آية /١
(٦) سورة البلد: آية /٤.
(٧) سورة القيامة: آية / ١.

كقولهم: لا والله لا أفعل، ف (لا) رد لكلام قد مضى، وكقولك:لا والله إن القيامة لحق، كأنك أكذبت قوما أنكروه).[١] وهو رأي أبي علي الفارسي كذلك[٢].

ونجيب على هذا القول، بأنه ضعيف من وجوه: –

١ – إن هذا الكلام المحذوف الذي قدروه لا دليل عليه.

٢ – قولهم هذا يتنافى مع ما قرره النحويون من أن اسم –لا – وخبرها لا يجوز حذفهما إلا اذا كانا في جواب سؤال، كما تقول: هل من رجل في الدار، فيكون الجواب: لا، أي: لا رجل في الدار[٣].

٣ – قرر علماء المعاني في مثل هذا الموضع تعيين العطف بالواو، حتى لا يحصل اللبس، كما يقال: هل شفي فلان من مرضه ؟ فيقال: لا، وشفاه الله. ولا يصح أن نقول: لا شفاه الله حتى لا يتوهم أنه دعاء عليه لا له. فلو كان الأمر كما يقولون، لقال سبحانه: لا وأقسم بيوم القيامة[٤].

٤ – قال تعالى:– ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[٥] فلو كان الأمر كما يقولون من أن (لا) جاءت لنفي كلام سابق، لم يكن ثمة داع لإعادة حرف النفي مرة أخرى، في قوله تعالى: – ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[٦].

ثالثا: – إن أصل (لا أقسم): لأقسم: أشبعت فتحة اللام فظهرت الألف.

---

(١) القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن،ج١٩/ ص٦٠.

(٢) الفراء: معاني القرآن: ج٣/ ص٢٠٧. وأمالي ابن الشجري، ج٢/ ص ٢٠٧. وقد نقل ابن الشجري هذا الرأي عن أبي علي الفارسي.

(٣) ابو حيان: البحر المحيط، ج٨ / ص ٢١٣.

(٤) ذكر الجاحظ القصة المشهورة عن أبي بكر، قال: ومر رجل بأبي بكر – رضي الله تعالى عنه ومعه ثوب، فقال: أتبيع الثوب ؟ فقال: لا عافاك الله، فقال أبو بكر: لقد علمتم لو كنتم تعلمون، قل: لا وعافاك الله. انظر: الجاحظ: البيان والتبيين: ج١/ ص٢٧٩.

(٥) سورة القيامة: الآيتان / ١، ٢.

(٦) سورة القيامة: آية / ٢.

أجاز الفراء[١] دخول لام الإبتداء على فعل القسم المضارع، مستدلا بقراءة الحسن[٢] ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[٣]، وتابعه ابن جني، ولكنه قدر حذف مبتدأ بعدها، قال: – (أي لأنا أقسم بيوم القيامة، وحذف المبتدأ للعلم به)[٤]، وخرجها الزمخشري على معنى (فلأنا أقسم)، اللام لام ابتداء، دخلت على جملة من مبتدأ وخبر، وهي: أنا أقسم.

قال:– (ولا يصح أن تكون اللام لام القسم لأمرين:

أحدهما: – إن حقها أن تقرن بها النون المؤكدة، والإخلال به ضعيف قبيح.

والثاني: – إن لأفعلن في جواب القسم للاستقبال. وفعل القسم يجب أن يكون للحال).[٥]

وقال العكبري:– (فيها وجهان: –

أحدهما: – هي لام التوكيد دخلت على الفعل المضارع كقوله تعالى: ﴿وإن ربك ليحكم بينهم﴾[٦]، وليست لام القسم.

والثاني: – هي لام القسم، ولم تصحبها النون اعتمادا على المعنى، ولأن خبر الله صدق، فجاز أن يأتي من غير توكيد)[٧]. ونقول: صحيح أن خبر الله صدق، ولكن لم نجد آية واحدة ذكرت فيها لام القسم متصلة بالفعل المضارع، دون أن تصحبها النون، وإذا أخذنا بالقول: إن خبر الله صدق – وهو كذلك –، واعتمدنا عليه، فلا داعي للقسم أصلا، لكنه أقسم لحكمة يعلمها.

---

(١) الفراء: معاني القرآن، ج٣/ ص ٢٠٧

(٢) ابن جني: المحتسب: ج١/ ص ٣٤١.

(٣) سورة القيامة: آية / ١.

(٤) ابن جني: المحتسب، ج٢/ ص ٣٤١.

(٥) الزمخشري: الكشاف، (تفسير سورة الواقعة) ج٤/ ص٥٨.

(٦) سورة النحل: آية /١٥٤

(٧) العكبري: أبو البقاء عبد الله بن الحسين: إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، على هامش الفتوحات الإلهية. ج٤/ ص ٤٣٢.

ومن خلال العرض الموجز السابق نصل إلى:

١ – ليست اللام لام ابتداء، أشبعت فتحتها فتولدت عنها ألف، وليست زائدة كذلك.

٢ – إن القسم المسبوق بالنفي، هو عبارة من عبارات القسم، وليست (لا) أداة نفي نافية للقسم كما ادعى البعض، إذ أنه مردود بتعيين المقسم به، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾[٢] فقد صرح بالقسم هنا، وليس بعد بيان الله بيان. كما أن تأكيد الأمر عن طريق النفي مألوف في لغة العرب، فإنك إذا قلت لصاحبك: (لاأوصيك بفلان)، فإنما تريد تأكيد التوصية به، وتبالغ في الاهتمام به. فتبلغ بالنفي ما لا تبلغه بالأسلوب الصريح المباشر، وكذلك نفي القسم، استعمل في القسم من طريق آكد وأبلغ.[٣]

---

(١) سورة الحاقة: الآيتان / ٣٨، ٣٩.

(٢) سورة الواقعة: الآيات / ٧٥، ٧٦، ٧٧.

(٣) انظر: د. سمير شيلوة: الكشف والبيان، ص ٣٠٤– ٣١٦. (بتصرف واختصار.)

المبحث الرابع
أنواع القسم الظاهر في القرآن الكريم

المطلب الأول
إقسامه تعالى بذاته وصفاته

وقد جاء في خمسة مواطن من القرآن

الموطن الأول: قوله تعالى في سياق الكلام على المنافقين: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾(١)

الموطن الثاني: قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٢)

الموطن الثالث: قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ﴾(٣)

الموطن الرابع: قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾(٤)

الموطن الخامس: قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾(٥).

وأما قوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ

---

(١) سورة النساء: آية / ٦٥.
(٢) سورة الحجر: الآيتان / ٩٢، ٩٣.
(٣) سورة مريم: آية / ٦٨.
(٤) سورة الذاريات: آية / ٢٣.
(٥) سورة المعارج: الآيتان / ٤٠، ٤١.

إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[1]، وقوله تعالى في سورة التغابن: - ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾[2] فليس من باب إقسامه تعالى بذاته، وإنما هو من باب تعليمه النبي - صلى الله عليه وسلم - كيفية الجواب، فهو بالنهاية من أقسام النبي - صلى الله عليه وسلم - بربه، على الطريقة التي دله الله عليها، وأرشده إليها

المطلب الثاني

وهو إقسامه تعالى بمخلوقاته، وهو كثير في القرآن

القسم بالمخلوقات في القرآن الكريم:

إذا استقصينا القسم في القرآن وجدناه تعالى يقسم على أصول الإيمان التي يجب على الخلق معرفتها، فتارة يقسم على أن الله واحد، وتارة يقسم على البعث، وتارة يقسم على حال الإنسان.

يقسم على أن الله واحد، كقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾[3].

وعلى أن القرآن حق، كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾[4].

وعلى أن الرسول حق، كقوله تعالى: - ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[5]. وعلى الجزاء، كقوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ

---

(١) سورة يونس: آية / ٥٣.
(٢) سورة التغابن: آية / ٧.
(٣) سورة الصافات: الآيات/١، ٢، ٣، ٤.
(٤) سورة الواقعة: الآيات /٧٥، ٧٦، ٧٧.
(٥) سورة يس: الآيات /١، ٢، ٣.

مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾[1].

وعلى حال الإنسان، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾[2].

وفي هذه الآيات وغيرها ترى المقسم به من مخلوقات الله تعالى، فبإقسامه أولا، وكونه يقسم بالمخلوقات ثانيا، أثار الشبهات التالية[3]: –

١ – الجري على عادة الحلف عندنا غير محمود شرعافالذي يلجأ للقسم متهم في صدقه، مفتقر إلى تأييد دعواه، فلماذا أكثر الله من الأقسام في القرآن.؟

٢ – نهى النبي –صلى الله عليه وسلم– عن الحلف بغير الله[4]، ثم إن الحلف بغير الله يقتضي تعظيمه، والعظمة لله وحده، واجتناب الحلف مطلوب شرعا، فكيف يحلف الله بمخلوقاته، كالتين والزيتون ؟

٣ – القسم القرآني – كما قلنا – وقع على أمور مهمة جدا، هي أصول الإيمان، فما المقصود به ؟ إن كان المقصود تحقيق المحلوف عليه وإثباته في ذهن المؤمن، فالمؤمن مصدق لا يحتاج إلى يمين، وإن كان المقصود به تحقيقه وإثباته في ذهن الكافر، فالكافر لا يصدق باليمين[5]، ولا يقنعه إلا الدليل الساطع، والبرهان القاطع. تلك الشبهات تخطر كلها أو بعضها في بال كثير من الناس.

فإذا سأل أحدهم: كيف يقسم الله بمخلوقاته؟ كان الجواب: إن الله أراد تشريف تلك المخلوقات، والتنويه بها، وإعلاء شأنها، والرد على من ذمها، وهذا

---

(١) سورة الطور: الآيات /١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨.

(٢) سورة الليل الآيات /١، ٢، ٣، ٤.وانظر ابن قيم الجوزية: التبيان في أقسام القرآن، ص ٤ – ٨.

(٣) عبد الحميد الفراهي: الإمعان في أقسام القرآن، ص ٤. (بتصرف).

(٤) الإمام مسلم: صحيح مسلم: كتاب الأيمان، ج١١ / ص ١٠٤– ١٠٧.

(٥) انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج٣/ ص ٤١.

ظاهر الصحة في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1]، إذا قلنا: إنه خطاب من الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم-، فقد كان النبي واحدا من العرب، ظهر فيهم وعليهم، فلقي منهم إيذاءً واستهزاء، ولقي منهم عنادا وإصراراً، وعتواً واستكبارا، فمن المعقول أن يشرفه الله بأن يقسم بحياته، أما أن يشرف الخيل العاديات ضبحا بالقسم، فبعيد، وأبعد منه أن يشرف بالقسم كلا من الشمس، والقمر، والنجوم، وقد بلغت عندهم من الشرف غايتة، حتى عبدها بعضهم، وفي تشريفه إياها بالقسم بها إغراء لهم بالتمادي في عبادتها، وهو يقول - سبحانه -: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾[2].

أساس تلك الشبهات: -

لعل مما سبب في تسرب هذه الشبهات إلى الأذهان، ظنها أن الغرض من القسم تقديس المقسم به، أو تشريفه وتعظيمه، وساعد على ذلك، أن معظم ما أقسم الله به من مخلوقاته شريف في ذاته، كالقرآن، والشمس، والقمر، ولكن القسم في اللغة قد يكون بالخسيس كذلك، ليؤدي غرضاً مقصوداً، وسنرى في الأسطر القادمة، أن في القسم بالمخلوقات، نوع يباين القسم التقديسي، ويباين القسم التشريفي، وجيء به ليؤدي غرضاً جليلا لا يؤديه غيره.

ولما كان القرآن قد نزل بلغة العرب، وعلى طريقتهم، وأسلوبهم، كان علينا أن نعرف الغرض الأصلي من القسم عندهم، وأن نتبين خصائصه وأهدافه، لتتداعى تلك الشبهات.

---

(١) سورة الحجر: آية /٧٢.

(٢) سورة فصلت: آية /٣٧.

المبحث الخامس
أغراض القسم القرآني، وأهدافه

يقول ابن يعيش: - (الغرض من القسم: توكيد ما يقسم عليه من نفي وإثبات)[١]

وقال ابن القيم: (والمقسم عليه: يراد بالقسم توكيده، وتحقيقه)[٢]،

والقرآن نزل بلغة العرب، ومن عاداتها: القسم إذا أرادت أن تؤكد أمرا، وقلما نجد القسم مستعملا في اللغات الأخرى وآدابها[٣].

وكثيرا ما يحتاج المتكلم إلى تأكيد خبر يسوقه، أو توثيق وعد يصدر منه، وبخاصة في الأمور المهمة كالمحالفات، والمعاهدات، وكان للتأكيد عند العرب صيغ مختلفة، وكان القسم أقواها تأكيدا وتحقيقا، لأنه يفيد الجزم بصحته، والقطع بصدقه، وقد بلغ من شأن القسم عندهم، أنهم كانوا يحترزون كل الاحتراز من الأيمان الكاذبة، ويعتقدون أنها شؤم على صاحبها، تخرب الديار، وتدعها بلاقع[٤]، لما فيها من الغدر والخيانة، ومن أجل هذا كانت اليمين عندهم قاطعة في إثبات الحقوق.

فالغرض الأصلي من القسم تأكيد المقسم عليه، أما تقديس المقسم به، أو تشريفه، فغير مقصود أصالة، وإن أتى تبعا

والقسم أنواع:

١ - نوع يلزم فيه التقديس.

٢ - ونوع فيه تشريف وإعزاز للمقسم به.

---

(١) ابن يعيش: موفق الدين يعيش بن علي: شرح المفصل،ج٩/ ص ٩٠.

(٢) ابن القيم: التبيان في أقسام القرآن، (مرجع سابق) ص ٢.

(٣) انظر: د. عبد الجليل عبد الرحيم: لغة القرآن الكريم، ص ٢٦٥.

(٤) البلقع: الأرض القفر، وجمعها بلاقع، ويقال للطريق: صلنقع بلنقع، والبلقع: المرأة الخالية من كل خير.

٣ – ونوع ثالث هو المقصود بالبيان، يكون القسم فيه بالدليل، أو ما في حكمه، وهو القسم الاستدلالي.

القسم التقديسي: – وهو إقسام الإنسان بمعبوده، فهو عند المسلمين: أن يقسم بالله أو بصفة من صفاته، فيقول أحدهم: أقسم بالله، أو بعزته، أو بجلاله لأفعلن كذا، وهو أقوى أنواع القسم تأكيدا للمقسم عليه، وهو القسم الشرعي، الذي يأثم الإنسان على نقضه بعد تأكيده.

قالت العلماء: أقسم الله تعالى بالنبي – صلى الله عليه وسلم –، في قوله ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[١] لتعرف الناس عظمته عند الله تعالى، ومكانته لديه)[٢] هذا إذا كان الله عز وجل هو المقسم، أما العباد إذا أقسموا، فالاسلام حرم عليهم القسم بغير الله، أو صفة من صفاته، وقد سمع النبي – صلى الله عليه وسلم – رجلا يحلف بأبيه، فقال: (إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت)[٣]. وللفقهاء في ذلك آراء وأقوال ليس هذا موضعها.[٤]

القسم التشريفي: – يحس الإنسان في نفسه عزة ورفعة، فيحمله هذا إذا أراد تأكيد كلام أن يقول: ورأسي، أو وحياتي، أو لعمري، لأفعلن كذا، وقد يريد إعزاز المخاطب وإكرامه فيقول: ورأسك، أو لعمرك، فكل هذه الأقسام تفيد التأكيد، ومع أنها تشعر بتعظيم المقسم به، إلا أنها لا تصل إلى حد التقديس.

القسم الاستدلالي:

١ – روي أن (هجرسا) حين هم بقتل خاله (جساساً) قاتل أبيه، قال: – (وفرسي وأذنيه، ورمحي ونصليه، وسيفي وغراريه، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو

---

(١) سورة الحجر: آية / ٧٢.
(٢) السيوطي: الاتقات، ج٢ / ص ١٧٠.
(٣) الإمام مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الايمان، ج٢/ ص ٢٠.
(٤) أبو اليقظان عطية الجبوري: اليمين والآثار المترتبة عليه. ص٥٢–٥٥.

ينظر إليه)[1]، ثم طعنه فقضى عليه. لم يرد (هجرس) تقديس فرسه وأذنيه ورمحه ونصليه، وسيفه وغراريه، ولا تشريفها، وإن كانت عظيمة عنده، عزيزة عليه، ولكنه أراد أن يقول:

لا عذر لي في أن أترك قاتل أبي حيا أنظر إليه، وأنا تام الأهبة، قادر على الضرب والطعن والثأر، أو أراد أن يقول: أنا تام العدة، قادر على الثأر، ومن كان كذلك، لا يسوغ له أن يترك قاتل أبيه حيا وهو ينظر إليه، فأنا لا يسوغ لي أن أترك قاتل أبي حيا، وأنا أنظر إليه، فوضع الدليل في صورة القسم التي تفيد تأكيد المحلوف عليه، وتلفت السامع إليه، دون أن تعطي الخصم فرصة الإنكار، أو الفرار.

٢ - قال عروة بن مرة الهذلي: -

وقال أبو أمامة يالبكر فقلت ومرخة دعوى كبير.

يستهزيء الشاعر بأبي أمامة على استغاثته بقبيلة بكر، فقال: هذه دعوى كبيرة، أي: ما أصغر من يدعوهم لنصره، فأقسم بشجرة صغيرة لا تؤوي من يلوذ بها، وضربها مثلا لأضعف الأشياء ملاذا، وإنما قال:(كبير)، تهكما، فهو يريد: فقلت ومرخة دعوى صغير، على حد قولك للأسود: يا أبيض، وللجبان: يا أسد. وكقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[2] أي: الذليل اللئيم.

ويتضح هذا المعنى مما قاله أبو جندب الهذلي:

وكنت إذا جار دعا لمضوفة أشمر حتى ينصف الساق مئزري.

فلا تحسباجاري لدى ظل مرخة ولا تحسبنه فقع قاع بقرقر.

---

(١) عبد الحميد الفراهي: الإمعان في أقسام القرآن (مرجع سابق) ص ٣٥. وانظر القصة كاملة في الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني ج٥/ ص٦١. ومحمد أحمد جاد المولى: أيام العرب في الجاهلية، وزملاؤه. ص ١٤٢-١٦٨.

(٢) سورة الدخان: آية / ٤٩.

والمرخة: شجرة ضئيلة الظل، لا تقي من استظل بها حر الشمس، ولذا تقول العرب لمن لجأ إلى ضعيف لا يحميه: لقد استظل بمرخة.[١]

فالتقديس والتشريف لا يلازمان المقسم به، بل قد يكون حقيرا، أو بغيضا ثقيلا، وقد يكون القسم للتذكير بالمقسم به، والتنبيه إليه، وقد يكون للاستدلال بالمقسم به على المقسم عليه، أو لتشبيه المقسم عليه بالمقسم به.

وإلى هذا أشار الفخر الرازي – عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾[٢] إلى أن الأيمان الواقعة في القرآن، وإن وردت في صورة القسم، فالمقصود بها الاستدلال بالمقسم به على المقسم عليه، وهو هنا صدق الوعد، والبعث، والجزاء، كأنه قيل: من قدر على هذه الأمور العجيبة المقسم بها، يقدر على إعادة من أنشأه أولا[٣].

وأكثر أقسام القرآن إستدلالية. والأدلة على ذلك كثيرة، منها: –

١ – إن حملها على الاستدلال هو اللائق بجلال الله وبجلال كتابه، لأنه ليس من اللائق ولا من الصواب، أن يفهم أي قسم من أقسام الله على أنه تقديس للمقسم به، لأن هذا التقديس يجوز على البشر، ولا يصح مع الخالق، إلا في حالة واحدة وهي: القسم بالله، فإنه تقديس.

٢ – إن القرآن يتصرف في أساليبه، فتارة يذكر الأمور الدالة على وجود الله، ووحدانيته وقدرته، في أسلوب القسم بها، وتارة يسوقها مساق العظة والتوجية، وهي في الحالتين بينات على ما سيقت إليه، لمن يتفكر فيها،

---

(١) عبد الحميد الفراهي: الإمعان في أقسام القرآن (مرجع سابق) ص ٣٥. (بتصرف). والقاع: المستوي من الأرض. والقرقر: الأملس الذي لا حجارة فيه. انظر: الرازي: مختار الصحاح، ص ٥٥٦. وابن منظور: لسان العرب ج١١ / ص ١٢٨.

(٢) سورة الذاريات: الآيات /١–٦.

(٣) الفخر الرازي: التفسير الكبير (مرجع سابق) ط٣، تفيسر سورة الذاريات ص١٩٣–١٩٦.

ويتدبر مراميها. قال تعالى: - ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[1]، وفي آيات أخرى استدلال بالأرض، والسماء، والجبال، والبحار، وغيرها، على طريق القسم بها، ولا شك أن توجيه القسم بها على أنه استدلالي للاحتجاج والاستشهاد، يناظر ذكرها للعظة، والتوجيه، والاعتبار

٣ - ليس من المعقول أن يتصور إنسان مؤمن أن الله الخالق يقدس مخلوقاته التي أقسم الله بها، وهي كما ذكر القرآن الكريم مرارا، مسخرة طائعة لله، لا تملك لنفسها ولا لغيرها، نفعا ولا ضرا.

٤ - على أن القرآن الكريم قد يذكر الآيات الدالة، ثم يقسم بالله سبحانه، كأنه قد مهد بذكرها، لبيان المراد من الاستدلال بها، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾[2].

ومعنى هذا: أن الآيات المنبثه في الأرض وما عليها، وفي النفوس وأحوالها وأسرارها، وفي السماء ونجومها وسحبها، كلها أدلة على وجود الله وقدرته، ودلائل على صدق النبوة والبعث، والقرآن، ولهذا عقب بالقسم بذاته العلية، وهذا القسم بالذات العلية مراد به التقديس، لأنه بالله المعبود بحق، ولأنه متضمن الاستدلال بما تدل عليه السماء والأرض من بينات على وجود الله تعالى، وعلى صدق محمد -عليه الصلاة والسلام-.

٥ - ثم إذا رجعنا إلى الأقسام القرآنية وأجوبتها، وجدنا ملاءمة بينهما، وأدركنا أن المناسبة قوية بين القسم والمقسم به، وهذا يعزز أنها أقسام استدلالية، من ذلك مثلا:

قول الله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[3].

---

(١) سورة الذاريات: آية / ٢١.

(٢) سورة الذاريات: الآيات / ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣.

(٣) سورة الضحى: الآيات: ١، ٢، ٣.

أقسم – عز وجل –بآيتين عظيمتين من آياته وهما: الضحى، والليل إذا سجى، يقول السيوطي مجليا التلاؤم بين هذا القسم وجوابه: – (وتأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمدا ربه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل، على ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه)[١]

ويمكننا أن نجمل أغراض القسم في القرآن الكريم فيما يلي:

١ – تأكيد الخبر وتقريره، وتلك عادة العرب الذين كانوا يقطعون كلامهم بالقسم، لأن (القصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده)[٢]. وهذا الغرض يظهر لنا إذا علمنا أن المقسم عليه كثيرا ما يكون من الأمور الخفية الغائبة، فيقسم عليها لإثباتها، مثل قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾[٣] فالقسم في كلام الله (يزيل الشكوك، ويحبط الشبهات، ويقيم الحجة، ويؤكد الأخبار، ويقرر الحكم في أكمل صورة)[٤].

٢ – لفت الأنظار إلى الكون وما يحويه من أسرار عجيبة، وما فيه من نظام بديع محكم[٥]، إذ كل يجري إلى أجل مسمى، وكل في فلك يسبحون، فجاء القسم في القرآن الكريم على هذه الأمور لأجل ذلك.

٣ – إثبات صدق الرسول –صلى الله عليه وسلم– إذ العرب كانت تعتقد أن الأيمان الكاذبة تدع الديار بلاقع، وأنها تضر صاحبها. وقد كان إكثار النبي – صلى الله عليه وسلم– من الحلف بأمر الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾[٦].

---

(١) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج٤/ ص٥١.
(٢) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، (مرجع سابق) ج٢/ ١٣٢.
(٣) سورة القيامة: الآيات /١، ٢، ٣، ٤.
(٤) مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، ص ٢٩١.
(٥) انظر: د. عبد الجليل عبد الرحيم: لغة القرآن الكريم، ص ٢٦٧.
(٦) سورة يونس: آية /٥٣.

وقوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[1]. ومع قسمه -صلى الله عليه وسلم- لم يصب بسوء ماءبل ارتفع شأنه وعلا ذكره -صلى الله عليه وسلم-، فكان دليلا على صدقه.[2].

٤ - إبراز المعقول في صورة المحسوس، وذلك أن الأمر المعقول إذا صور في شيء حسي، فإن العقل يستوعبه، أكثر ما لو كان مجردا عن الحس، ومثله تشبيه الوحي بالضحى في رابعة النهار، وتشبيه الباطل بالليل، وانتصار الحق بالنهار، إشارة إلى أن الليل البهيم، لابد وأن يعقبه صبح مشرق بهيج، يبدد ظلامه وظلماته، وكذلك ظلام الشرك والجهل، لابد وأن يعقبه نور الحق واليقين.

٥ - تصحيح العقائد الباطلة، فالقسم بالنجم إذا هوى، وبالكواكب، وبالشمس، والقمر، فيه رد على من اعتقد أنها آلهة، وأن لها تصرفا في العالم السفلي.

٦ - لفت الأنظار إلى أحداث بارزة، كان لها أكبر الأثر في تاريخ البشر، وذلك الغرض يظهر في القسم بالأمكنة مثل (الطور)، فالقسم به فيه إشارة إلى ماكان عند ذلك الجبل من الآيات التي ظهرت لموسى -عليه السلام-، والقسم بالبلد الأمين (وهذا البلد الأمين) فيه إشارة إلى حادثة ظهور النور المحمدي من هذا البلد الأمين، ذلك النور الذي بدد ظلمات الجهل والضلال، ثم شع في آفاق الدنيا وملأ جنباتها، إلى آخر ما هنالك من أهداف وأغراض.[3]

---

(١) سورة سبأ: آية /٣.

(٢) انظر: د. عبد الجليل عبد الرحيم: لغة القرآن الكريم، ص ٢٦٧.

(٣) د. سمير عبد العزيز: الكشف والبيان في علوم القرآن، ص٢٨٥-٢٨٧. بتصرف واختصار. وانظر: د. عبد الجليل عبد الرحيم: لغة القرآن الكريم، ص ٢٦٨. و أحمد أحمدبدوي: من بلاغة القرآن، ص ١٧٠-١٧٣.

المبحث السادس
الأمور المقسم عليها في القرآن الكريم

يمكن إجمال الأمور المقسم عليها في القرآن الكريم في أصول أربعة، هي أسس الإيمان، وهي:

الأول:- تثبيت أساس التوحيد.

الثاني:- تقرير أمر النبوة، والإشادة بصدق الكتاب الحكيم.

الثالث:- إثبات الحياة الأخرى، وما يتصل بها من حساب، فثواب أو عقاب.

الرابع:- توضيح المهم من أحوال الإنسان وتصرفاته في هذه الحياة.

أما الأصل الأول وهو تثبيت أساس التوحيد: فيدخل تحت هذا الأصل قوله تعالى: - ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾[1].

قال الشيخ طه الراوي: (أقسم تعالى بنفوس الغزاة التي تقاتل في سبيل الحق متحدة مع بعضها كالبنيان المرصوص، وبهذا الإتحاد والتراص تزجر المبطلين، وتهديهم إلى سبيل الرشد، أقسم على أنه لا معبود بحق إلا إله واحد لا شريك له، فهو قسم بالمتحدين على ثبوت التوحيد، وفيه إشارة إلى أنه كما أن القوة والنجاح وليدة الاتحاد، فكذلك وحدانية الصانع، وانعدام الشريك هي السبب في إبداع هذا الكون، وإحكام نظامه، إذ لو كان مع الله آلهة أخرى لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض، وبذلك يختل نظام الكون، وتندثر معالمه)[2].

وأكثر المفسرين على أن المراد بالصافات، والزاجرات، والتاليات، جماعة من الملائكة، موصوفة بهذه الصفات، وهو الأظهر والأرجح، إذ تؤيده الآيات

---

(١) سورة الصافات: الآيات /١، ٢، ٣، ٤.

(٢) طه الراوي: مباحث إسلامية (مرجع سابق) ص ١٣.

القرآنية، فقد جاء وصف الملائكة بأنهم صافون في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾[1] في نفس السورة، كما جاء وصفهم بذلك فيما رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (فضلنا على الناس بثلاث، جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة.. الحديث)[2]، ولأن هذا القول هو المأثور عن جماعة من الصحابة والتابعين.[3]

فيكون المعنى: وحق الملائكة الذين يصفون أنفسهم صفا لعبادة الله تعالى وطاعته، والذين يزجرون غيرهم عن ارتكاب المعاصي، أو يزجرون السحاب إلى الجهات التي كلفهم الله بدفعه إليها، والذين يتلون آيات الله المنزلة على أنبيائه، تقربا إليه، وطاعة له.. إن ربكم أيها الناس لواحد لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في خلقه..

ومما جاء في الأصل الثاني: وهو تقرير أمر النبوة، والإشادة بصدق الكتاب الحكيم:

قوله تعالى: – ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[4].

أقسم جل شأنه بالقرآن الحكيم، المعجز في نظمه، وبديع معانيه، المتقن في تشريعه وأحكامه، الذي بلغ أعلى طبقات البلاغة، على أن محمدا –صلى الله عليه وسلم– رسول من المرسلين،والتأكيد بالقسم لشدة إنكارهم لرسالته. ومن المعلوم أن القرآن معجزة من معجزات رسولنا – صلى الله عليه وسلم – وتحدى العرب أن يأتوا بحديث مثله، أو بعشر سور من مثله مفتريات، أو بسورة من مثله، فلم يستطيعوا، فإقسام الله بالقرآن على صحة الرسالة، إقسام بالمعجزة التي تؤيد تلك الرسالة، والدليل الذي يثبتها، كأنه قال: إنك من

---

(١) سورة الصافات: الآيتان، ١٦٥، ١٦٦.

(٢) الإمام مسلم: صحيح مسلم، كتاب المساجد، ج٢، ص ٦٣.

(٣) انظر الآلوسي: روح المعاني، ج٢٣/ ص٦٤. ودمحمد السيد الطنطاوي: التفسير الوسيط ج٢٢/ ص٨٢.

(٤) سورة يس: الآيات /١، ٢، ٣.

المرسلين بدليل القرآن الحكيم، فأخرج الدليل مخرج اليمين، لأن المتكلم – كما قال الفخر الرازي –: (إذا شرع في أول كلامه يحلف، يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم، فيصغي إليه)[١] تمام الإصغاء، ويقبل على سماعه كل الإقبال، ثم إن في القسم بالمعجزة تذكيرا بها، وتبكيتا للمعاند على الإغضاء عنها، ولا أدل على هذا التوجيه من أن الله – جل شأنه – عودنا في كتابه العزيز، تصريف الآيات والبراهين، التي يسوقها دلائل على أصول الإيمان، فتارة يذكرها على سبيل الآية والعبرة، وتارة يذكرها كأنها خبر من الأخبار، وأحيانا يذكرها بأسلوب القسم.

ومنه قوله تعالى: – ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾[٢] إذ نجد فيه تلاؤم جواب القسم (إنكم لفي قول مختلف) مع هذا الوصف الذي وصفت به السماء (ذات الحبك)، فالحبك: هي الطرائق، ولما كان هذا الوصف مشعرا بالتشعب والاختلاف..

جاء الجواب [(إنكم لفي قول مختلف) قولهم في الرسول – صلى الله عليه وسلم –: ساحر، وشاعر، ومجنون وفي القرآن، شعر وسحر، وأساطير الأولين. وعن الضحاك: قول الكفرة: لا يكون مستويا، إنما هو متناقض مختلف][٣]

وقال البيضاوي: (ولعل النكتة[٤] في هذا القسم تشبيه أقوالهم – في اختلافها وتنافي أغراضها – بالطرائق للسموات في تباعدها، واختلاف غاياتها)[٥].

---

(١) الفخر الرازي: التفسير الكبير (مرجع سابق) تفسير سورة الذاريات، ج٢٧ / ص١٩٤.

(٢) سورة الذاريات: الآيتان / ٧، ٨.

(٣) الزمخشري: الكشاف (مرجع سابق)، ج٤ / ص ١٤.

(٤) يريد بيان مناسبة المقسم به هنا، وهو قوله: والسماء.. الآية، للمقسم عليه، وهو قوله: إنكم.. الآية. انظر: حاشية الشهاب: ج٨/ ص ٩٥.

(٥) تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل): بهامش حاشية الشهاب، ج٨/ ص٩٥.

ومنه كذلك: قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[1].

قال المفسرون: أراد بالنجم: جنس النجوم، أو أراد به الثريا على ما اشتهر عند العرب. وهوى النجم: غرب أو طلع. يقال: هوى هويا -بفتح الهاء - إذا سقط وغرب، وهوى هويا - بضم الهاء- إذا على وصعد. وما ضل: أي ما عدل عن الطريق المستقيم، وما غوى: أي ما اعتقد باطلا، والغي: خلاف الرشد، وهو الجهل مع اعتقاد فاسد[2].

أقسم - سبحانه - بالكوكب الذي ينبعث منه النور، وتكون به الهداية في ظلمات البر، والبحر، على كون محمد - صلى الله عليه وسلم- سالكا جادة الرشد والهداية، ونفى عنه ما كانت قريش تنسبه إليه من الضلال في ترك ما كانت عليه آباؤهم، وأئمة الكفر منهم، وأن ما جاء به من الكتاب ليس من عنده، وإنما هو وحي إلٰهي. وكانت العرب تضرب الأمثال بهداية النجم والاهتداء به، ومما يؤثر عنهم في هذا قولهم: فلان أهدى من النجم، ويقولون: لا يضل فلان حتى يضل النجم. وإلى هذا أشار القرآن نفسه فقال: - ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[3].

والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه ظاهرة جلية، فا لمقسم به: هو النجم الذي لا يضل السبيل، وبه يهتدي السائرون، والمقسم عليه: كون محمد - صلى الله عليه وسلم - على محجة الهداية، وكون ما جاء به ليس إلا وحيا تلقاه من عالم الغيب والشهادة.

وإنما قال: ما ضل صاحبكم، ولم يقل: ما ضل محمد، تأكيدا لإقامة الحجة

---

(١) سورة النجم: الآيات /١-٥.

(٢) حاشية الشهاب (عناية القاضي وكفاية الراضي): وبهامشها تفسير البيضاوي (مرجع سابق) ج٨/ ص١٠٩.

(٣) سورة النحل: آية / ١٦.

عليهم لأنهم مصاحبون له طوال أربعين سنة قبل البعثة، وهم أعلم الخلق به، وبحاله، وبأقواله، وبأعماله، وأنهم في تلك المدة الطويلة لم يشاهدوا منه إلا الصدق، والأمانة، والعقل الراجح، والقول السديد، فقولهم بعد بعثته – صلى الله عليه وسلم – إنه ساحر، أو مجنون، هو نوع من كذبهم البين، وجهلهم المطبق.(١)

ومما جاء في الأصل الثالث:

في إثبات الحياة الأخرى، وما يتصل بها من حساب، فثواب أو عقاب، قوله تعالى: – ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾(٢) أقسم الله – جل شأنه – بأمور أربعة على أن ما توعد به من البعث، وأمر الساعة حق، وعلى أن الدين – وهو الجزاء، من ثواب أوعقاب – واقع لا محالة، فهو قسم على البعث، وعلى الجزاء.

قال الفخر الرازي: –(الأمور الأربعة –التي أقسم الله بها هنا – جاز أن تكون أمورا متباينة، وجاز أن تكون أمرا له اعتبارات أربع، الأول: أن الذاريات: هي الرياح، والحاملات: هي السحاب، والجاريات: هي السفن، والمقسمات: هي الملائكة الذين يقسمون الأرزاق. والثاني: وهو الأقرب: أن هذه صفات أربع للرياح، فالذاريات: هي الرياح التي تنشيء السحاب، والحاملات: هي الرياح التي تحمل السحب التي هي بخار المياه.

والجاريات: هي الرياح التي تجري بالسحب بعد حملها. والمقسمات: هي الرياح التي تفرق الأمطار على الأقطار..)(٣). وعلى هذا تكون الفاء لبيان ترتيب

---

(١) انظر: الشهاب الخفاجي: حاشية الشهاب (مرجع سابق): ج٨ / ص ١٠٩– ١١٠ و سليمان بن عمر الشهير بالجمل: الفتوحات الإلٰهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية: ج٤ / ص ٢٢٢– ٢٢٣.

(٢) سورة الذاريات: الآيات /١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦.

(٣) الفخر الرازي: التفسير الكبير (مرجع سابق) ج٢٧/ ص ١٩٥.

هذه الصفات في الوجود، فإن الذاريات تثير البخار، فينعقد سحابا، فتحمله الرياح، فتفرقه على الأقطار.

والمقسم عليه: صدق الموعود من البعث والنشور، ووقوع الحساب، فالثواب أو العقاب. فالمناسبة بين المقسم به، والمقسم عليه واضحة، فالقادر على تأليف السحاب من ذرات البخار، بواسطة الرياح الذارية، ثم إعادته بعد ذلك إلى سيرته الأولى، قادر على إعادة الإنسان، وتأليف أجزائه المتفرقة.

وقد أقسم هنا بالرياح والسحاب على البعث والجزاء، وذكرهما في سورة الروم على سبيل الآية والعبرة، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

فالقادر على إرسال الرياح، وإثارة السحب، وإحياء الأرض بعد موتها، قادر على إحياء الموتى[2].

ومما جاء في الأصل الرابع، وهو بيان أحوال الإنسان وتصرفاته المختلفة:

قوله تعالى: - ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[3].

---

(١) سورة الروم الآيات /٤٨، ٤٩، ٥٠.

(٢) انظر: سليمان بن عمر: الفتوحات الإلٰهية، ج٤ / ص ٢٠١.

(٣) سورة التين: الآيات /١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦.

والمقسم عليه في هذه السورة يتكون من أمور ثلاثة:

أ – دليل من أدلة القدرة الإلٰهية على البعث، والجزاء، وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

ب – وعيد صارم شديد، وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ وأسفل سافلين: النار على الصحيح، أو هو سجين موضع الفجار، كما أن عليين موضع الأبرار.

ورددناه: معناه ونرده، فعبر بالماضي موضع المضارع المستقبل، إيذانا بأن الرد أسفل سافلين واقع لا محالة، وتشبيها للمستقبل المحقق وقوعه، بالماضي الواقع فعلا.

ج – وعد حسن، وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[1] أي: مقطوع. والقسم في هذه السورة أكثر انصبابا على الأمرين الأخيرين، أي: على الوعد والوعيد.

قال المفسرون[2]: – أراد بالتين والزيتون: المكان الذي كثر شجرها فيه، على سبيل التجوز، عبر بالحال وهو التين والزيتون، وأراد المحل، وهو الأرض المقدسة، التي ظهر فيها عيسى –عليه السلام–وقالوا: إن هذا المعنى هو الذي يتناسب مع طور سينين، ومع البلد الأمين، والتعبير بالحال عن المحل مألوف في الكلام العربي، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[3]، أي: ففي جنته التي تحل فيها الرحمة.

وعلى هذا يكون الله قد أقسم على خلق الإنسان وتعذيبه وإثابته بأمكنة ثلاثة، هي مظاهر أنبيائه ورسله أصحاب الشرائع العظام المعروفة، أقسم بأرض

---

(١) سورة التين: آية / ٦.

(٢) انظر: الألوسي (مرجع سابق): روح المعاني، ج٣٠/ ص ٢٢١–٢٢٣. و اسماعيل بن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٤ / ص ٥٢٦.

(٣) سورة آل عمران: آية /١٠٧.

بيت المقدس مظهر رسوله وكلمته وروحه -عيسى بن مريم- وفيها نزل الإنجيل عليه، ثم أقسم بالجبل الذي كلم الله موسى عليه تكليما، وناداه من جانب الطور الأيمن من البقعة المباركة من الشجرة التي فيه، أن اذهب إلى فرعون إنه طغى، ثم أقسم بالبلد الأمين مظهر خاتم الأنبياء والمرسلين، فتدرج من التين والزيتون، إلى طور سينين، إلى بلد الله الأمين، فختم بموطن الرسالة الخاتمة، أشرف الرسالات.(١)

أقسم بهذه الأمكنة الثلاثة التي هي مهبط الوحي والرسالة، على أن ما سيلاقيه من ثواب أو عقاب، إنما هو نتيجة إيمانه، أو كفره وطغيانه، بعد أن أرسل رسلا مبشرين ومنذرين.

وكأنه جل شأنه يقول: (هأنذا قد أرسلت لكم الرسل، فأناروا لكم الطريق، وميزوا لكم الرشد من الغي، فإن عصيتم فلكم أسفل سافلين، وإن أطعتم فلكم أجر غير ممنون)(٢)

ويمكننا القول: إن الله تعالى أقسم بالشمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار، والبحر، والعصر، والسحاب، والنفس، والملائكة، وغيرها من المخلوقات، وكلها آيات دالة على قدرته، ووحدانيته، وكماله، وقد ذكرها في مواضع مختلفة من كتابه بغير أسلوب القسم.

---

(١) انظر: د. فاضل السامرائي: التعبير القرآني، ص ٢٩٩-٣٠٩.

(٢) ابن قيم الجوزية: التبيان في أقسام القرآن، (مرجع سابق) ص٤٣-٥٤.

المبحث السابع
بلاغة القسم القرآني

بعد هذا الإيجاز يجدر بنا أن نتعرف على ما في أسلوب القسم من وجوه البلاغة، لتكتمل النظرة، وتتم الفكرة.

١ - يمتاز أسلوب القسم بإيجازه، ولهذا يهجم على السامع، فيمتلك مشاعره، ولعل العرب أكثروا منه، وأفتتنوا فيه لوجازته، وهم إلى الإيجاز أميل في شعرهم ونثرهم، ومن هنا راجت الأمثال بينهم وشاعت، وذاعت الحكم والتوقيعات فيما بعد العصر الجاهلي، وتسابقوا إلى تجديدها، والاحتفاظ بها.

٢ - القسم ضرب من الأسلوب الإنشائي، لا مناص للخصم من الإقرار به، ولا وجه له في إنكاره، فإن شاء أن ينكر، انصب إنكاره على جواب القسم، لا على القسم نفسه، لأن الجواب خبر[١] لا إنشاء[٢].

وقد يجمع القرآن الكريم بين القسم والوصف، كالقسم بالقرآن المجيد واليوم الموعود، والصافات صفا، ففي هذا وأشباهه قسم، ووصف للمقسم به، ليكون الاستدلال أعظم في النفس وأوقع.

٣ - قد يحذف جواب القسم في القرآن، وهو المقسم عليه، فينتقل بعد القسم إلى كلام آخر، لكنه مرتبط بالجواب المحذوف. والسر في هذا أنه يسد على المخاطب المنكر طريق الفرار، فلا ينتقل من القسم وهو إنشاء، إلى الجواب وهو خبر، لئلا يجاري المنكر في الجواب، ثم ليكون القسم كالتمهيد والتنبيه،

---

(١) الخبر: هو ما احتمل الصدق والكذب لذاته، أي: لذات الخبر نفسه. وهذا بالطبع يخرج ما كان صادقا قطعا، وما كان كاذبا قطعا. انظر: فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها، مبحث الخبر، ص٩٩ وما بعدها.

(٢) الإنشاء: ما لا يحتمل صدقا ولا كذبا. وهو قسمان: طلبي، وغير طلبي. انظر: فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها، (مرجع سابق) مبحث الإنشاء، ص١٤٧ وما بعدها.

فيسترعي سمع المخاطب، فيرهف أذنيه ليستمع ما بعد القسم، فإذا به يسمع ما يؤيد الاستدلال المقصود من القسم نفسه، كقوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾[1]، فأقسم بحرف من حروف الهجاء التي يتكون منها القرآن، على سبيل التحدي والتنبيه على الإعجاز، وأتبعه بالقسم بالقرآن، وحذف الجواب لدلالة التحدي عليه، كأنه قال: والقرآن ذي الذكر إنه كلام معجز، ولكن الكفار استكبروا ولم يذعنوا إليه، فعارضوا الرسول وكذبوه.

أو كأنه قال: أقسم بالقرآن ذي الشرف العظيم، إنك لصادق فيما تبلغ عن ربك، ولكن الكفار استكبروا ولم يذعنوا للحق، وأصروا على العناد. أو أقسم بالقرآن أن الأمر ليس كما يزعم هؤلاء الكفار، بل هم في استكبار ومخالفة، وعداوة لمحمد.

٤ - إن من مزايا القسم أنه يسهل الجمع بين عدة أدلة في جملة واحدة، أو في جمل متلاحقة، كما في سور: التين، والبلد، والطور، والشمس، والليل، والفجر، مع الإيجاز، ولو أن الأدلة فصلت وبسط فيها القول، لفقد الكلام روعته وتأثيره.

٥ - يشرك القسم الاستدلالي السامع في استنباط الدليل، ويخفف من عناده وخصامه، فيشعر أنه تعرف وتأمل، ولهذا كانت الأساليب الإنشائية كلها أكثر اجتذابا من الأساليب الخبرية. وهذا هو السبب في أن الحاذق اللبق ينوع أساليبه، ويراوح بين الإنشاء والخبر، لينشط المخاطب، ويشركه في الفهم، والبحث، والاستنباط، حتى ليتوهم أنه هو الذي اهتدى إلى الحق بنفسه.

٦ - ومن ضروب بلاغة القسم: أنه تقديم لتوثيق الصدق قبل ذكر الدعوى، لأنه يقرع أذني المخاطب، فيصغي ويترقب ما بعده، ثم تجيء الدعوى فيسهل قياده لها، ولكنه إذا فوجيء بالدعوى التي ينكرها، انصرف عنها ونفر منها.

---

(١) سورة ص: الآيتان /١، ٢.

وشتان ما بين قولك: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[1] فسبحان من نفى عن رسوله – صلى الله عليه وسلم – التهمة قبل حكايتها.

(١) سورة القلم: الآيتان /١، ٢.

الخاتمة

ظهرت لي من خلال دراستي الموجزة لأسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم، بعض النتائج، يمكن تلخيصها في النقاط التالية: -

١ - لجأ القرآن الكريم إلى القسم جريا على عادة العرب في توكيد الأخبار، لتستقر في النفس، ويتزعزع فيها ما يخالفها، وإذا كان القسم لا ينجح احيانا في حمل المخاطب على التصديق، فإنه كثيرا ما يوهن في النفس الفكرة المخالفة، ويدفع إلى الشك فيها، ويبعث المرء على التفكير الجاد والقوي فيما ورد القسم من أجله(١).

٢ - أقسم الله بجميع مخلوقاته، شاهدها ومشهودها، ما نبصره وما لا نبصره. على وجوده ووحدانيته، وقدرته، ووقوع البعث، وصدق النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولينبهنا على ما فيها من روعة، تدفع إلى التفكير في خالقها.

٣ - إن القسم بالله تعالى مقصود به التقديس، لأنه الخالق الذي يستوجب التقديس والعبادة، وما عدا ذلك فالتقديس والتشريف غير لازمين للقسم، وإن كان المقسم به عظيما في ذاته، وعظيما عند خالقه.

٤ - صوغ الدليل في صورة القسم، فيه توكيد للمقسم عليه، وتنبيه للسامع إليه، وتمهيد له بما يقرره في الذهن.

٥ - إن القرآن قد يستعمل أسلوب القسم بغير مقسم به كما جرى في العرف العربي، نحو قوله تعالى: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٢)، ونحو قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾(٣).

---

(١) انظر: أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، ص ١٧٠.
(٢) سورة الأعراف: آية /١٨.
(٣) سورة المجادلة آية /٢١.

٦ – باستقراء آيات الله البينات، وجدت أن القسم الوارد فيها غالبا ما يكون بالواو، وأنه لا يكون إلامن الله تعالى في الأعم الأغلب، فيقسم الله عز وجل بما شاء على ما شاء.

٧ – في إيراد الدليل بصورة القسم، إيجاز في إيضاح، أو إيضاح في إيجاز[١].

---

(١) انظر محاضرة الأستاذ عمر أبو النصر بنادي دار العلوم – جامعة القاهرة، في (٥ يوليو عام ١٩٤٣ م). ونشرت في مجلة دار العلوم بمصر، في شهر سبتمبر من نفس العام. (بتصرف واختصار).

مصادر ومراجع البحث

١ – الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة.

٢ – إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: لأبي السعود بن محمد العمادي، ط٢، دار الفكر، بيروت.

٣ – أساس البلاغة: جار الله محمود الزمخشري، كتاب الشعب، دار مطابع الشعب، مصر، ١٩٦٠م.

٤ – أسلوب القسم واجتماعه مع الشرط في رحاب القرآن الكريم: علي أبو القاسم عون منشورات جامعة الفاتح ليبيا، ١٩٩٢م.

٥ – إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم: الحسين بن أحمد المعروف بابن خالويه، المكتبة الثقافية، بيروت.

٦ – أمالي ابن الشجري: هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسني العلوي، تحقيق ودراسة: د. محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٧ – إمعان في أقسام القرآن: المعلم عبد الحميد الفراهي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٩هـ.

٨ – إملاء ما من به الرحمن في وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن: لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، على هامش(الفتوحات الإلهية)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٩ – أنوارالتنزيل وأسرار التأويل: القاضي ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي، بهامش حاشية الشهاب الخفاجي، دار صادر، بيروت.

١٠– أيمان العرب في الجاهلية: أبو اسحاق بن عبد الله النجيرمي، تحقيق:محب الدين الخطيب، ط٢، الدار السلفية بالقاهرة.

١١- أيام العرب في الجاهلية:محمد أحمد جاد المولى وزملاؤه، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

١٢- البحر المحيط: محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٩هـ.

١٣- البلاغة فنونها وأفنانها: أ.د. فضل حسن عباس، ط٢، دار الفرقان، عمان.

١٤- البيان والتبيين: لأبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، تحقيق حسن السندوبي المكتبة التجارية الكبرى، ط٢، ١٩٣٢م،

١٥- التبيان في أقسام القرآن: شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، تصحيح محمد حامد الفقي، ط١، مطبعةحجازي بالقاهرة، سنة ١٩٣٣م.

١٦- التعريفات: علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت.

١٧- التفسير البياني للقرآن الكريم: د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ج١، ط٧، دار المعارف، القاهرة.

١٨- تفسير سورة النجم: دراسة تحليلية وموضوعية، د. عبد ربه فرحات البدراوي، دار الاسلام للطباعة والنشر، المنصورة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

١٩- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء اسماعيل بن كثير، ط المنار، بالقاهرة، سنة ١٣٤٧هـ.

٢٠- التفسير الكبير: (مفاتيح الغيب): محمد فخر الدين الرازي، ط٣، دار إحياء التراث العربي بيروت.

٢١- التفسير الوسيط للقرآن الكريم: د. محمد السيد طنطاوي، مطبعة السعادة، القاهرة،

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥م.

٢٢- الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٣- حاشية الشهاب المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت.

٢٤- خصوصية المعنى لألفاظ القرآن الكريم: محمود سليم محمد هياجنة، ط١، اربد، المملكة الأردنية الهاشمية.

٢٥- ديوان ابن قيس الرقيات، ط، دار بيروت للطباعة والنشر.

٢٦- ديوان امرئ القيس: صنعه حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية بمصر، سنة ١٩٣٠م.

٢٧- ديوان لبيد بن ربيعة العامري: دار صادر، بيروت.

٢٨- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود الآلوسي، دار الفكر، بيروت.

٢٩- شرح المفصل: موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي، إدارة الطباعة المنيرية.

٣٠- الصحاح في اللغة والعلوم: تجديد صحاح الجوهري، طباعة دار الحضارة العربية، بيروت.

٣١- صحيح مسلم بشرح الإمام النووي: مؤسسة مناهل العرفان، بيروت.

٣٢- الفتوحات الإلهية، بتوضيح تفسير الحلالين: سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة.

٣٣- الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم: د. محمد بن عبد الرحمن بن صالح الشايع، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض.

٣٤- القاموس المحيط: مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي، ط٢، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، بمصر.

٣٥- الكتاب: لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، ط١، دار الجيل، بيروت.

٣٦- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: جار الله محمود الزمخشري، ط١، دار الفكر، بيروت.

٣٧- الكشف والبيان في علوم القرآن، د. سمير عبد العزيز شيلوة، مطبعة دار البيان بمصر.

٣٨- لسان العرب: جمال الدين محمد (ابن منظور)، عني بتصحيحها أمين محمد عبدالوهاب وزميله، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٩- لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادةفي القرآن: أ. د. فضل حسن عباس، ط١، دار النور، بيروت

٤٠- لغة القرآن الكريم: د. عبد الجليل عبد الرحيم، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، ط١، ١٩٨١م

٤١- مباحث إسلامية، للعلامة طه الراوي، جمع تحقيق حارث طه الراوي، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٨٢م.

٤٢- مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٤٣- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: لأبي الفتح عثمان بن جني، (الجزءالأول) تحقيق علي النجدي ناصف، وعبد الحليم النجار، وعبد الفتاح شلبي، القاهرة، ١٣٨٦هـ، و(الجزء الثاني): تحقيق علي النجدي ناصف، وعبد الفتاح شلبي، القاهرة، سنة ١٣٨٩هـ.

٤٤- مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، عني بترتيبه محمود خاطر بك، المطبعة الأميرية، بالقاهرة، سنة ١٣٤٠هـ - ١٩٢٢م.

٤٥- المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات: لأبي علي الفارسي تحقيق ودراسةصلاح الدين عبد الله الشيكاوي، مطبعة العاني، بغداد.

٤٦- المسند: عبد الله بن الزبير الحميدي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، عالم الكتب، بيروت.

٤٧- معاني القرآن: لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، (الجزء الأول): تحقيق أحمد يوسف نجاتي، وزميله، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٨٠م. و(الثاني والثالث) عالم الكتب، ببيروت ط٢، سنة ١٩٨٠ م.

٤٨- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: جمال الدين بن هشام الأنصاري، تحقيق مازن المبارك وزملاؤه، ط٦، دار الفكر، بيروت.

٤٩- مفردات ألفاظ القرآن: الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي، ط١، سنة ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م. بيروت.

٥٠- من بلاغة القرآن: أحمد أحمد بدوي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة،١٩٥٠م، ص ١٧٠.

٥١- اليمين والآثار المترتبة عليه: د. أبو اليقظان عطية الجبوري، ط٢، ١٩٨٦م، دار النهضة الجديدة، بيروت.

٥٢- محاضرة للأستاذ عمر أبو النصر بنادي دار العلوم، في يوليو سنة ١٩٤٣م، ونشرتها صحيفة دار العلوم في سبتمبر ١٩٤٣م.

٥٣- مقال د. أحمد الحوفي: أساليب القسم في اللغة والقرآن الكريم، نشرته مجلة الأزهر. ولدي صورة عنه، إلا أنني أنسيت حين صورته أن أكتب رقم العدد وسنة صدوره.